فى الحياة والموت لم يصادف حافظ إلاحسكا وشوكاً . فى الحياة والموت لم يلق إلا غمطاً وتجاهلا ، فحق له وهو يعلم حظه المكدود ان يتوق الى الموت ، ليستريح من العناء ويرتاح من رؤية هذه المضادّات تقتحم عليه عرين راحته ، وتكاد تسدّ عليه منافسه ، فتذيقه من علقمها الواناً واشكالاً !

اىْ حافظ !

ان السوريين قاطبة ليكرمون فيك دائماً اخاً وصديقاً وحبيباً . يكرمون فيك شاعراً عظيماً ، شاعراً أشاد بمفاخرهم ، وحاول الجمع بين القلوب . وهذه التحية التى يزفها اليك احدهم فى هذه السطور يرجو ان تنوب لدى روحك النبيلة ، ولدى أبناء وطنك ، عن سورية وبنيها الرابضين فى الوطن والمهاجرين فى اطراف العالم . فأنت وإن مت وغادرت دار الاحياء الى دار الخلود والبقاء ، فانّ ذكراك حيّة خالدة فى أفئدة السوريين ، منقوشة ابداً على صفحات قلوبهم .

وفى ذمة الله ياحافظ !

ميشيل سليم كبير

المديح والشكوى والرثاء

فى شعر حافظ

لحافظ أشعار كثيرة فى مواقف عدة ومناسبات مختلفة ، ولهذا لُقّب بالشاعر الاجتماعى ، وشاعر النيل ، وشاعر الشعب ، الخ . وهو جدير بهذه الألقاب ، إذ أنه الشاعر الوحيد الذى كان ينطق بلسان الشعب ، فيتألم لآلامه ويفرح لما يسره . وأقرب وصف لنفسية حافظ هو ما وصفه به خليل بك مطران من مقالة ذكر فيها : «وَلع بالاجتماعيات فقال فيها وأجاد ما شاء ، كبير الآمال عاثر الجد ، تجد على أكثر منظومه أثراً من ألم النفس أو مسحة من الشكوى ، وتحمل بعض حروفه من بثّه ما يلدغ لدغ النار الكامنة فى غير متّقد»

ان لحافظ أشعاراً فى شتى المناسبات ومختلف المواقف كما أسلفنا : فاذا مدح فهو الشاعر الفذ الذى يخلع على ممدوحه ثياب الفخر والبهاء الى أبد الدهر ، وإن شكا من الزمان ومن مفارقة الأوطان والاهل والخلان صوّر لك روحه كأنها تتقلب على

الجمر فهى تعانى من الآلام ما تعانى . وما كان من أشعاره فى الرثاء فهذا مما لا يجارى فيه ، فهى بجملتها دموع من قلبه تقطر دماً فلا عجب أن يجيد حافظ المراثى بعد أن نعلم أن ذلك الشاعر العظيم نشأ على البؤس والشقاء ، ولا زال يغالب الأيام وتغالبه حتى ألقى السلاح أخيراً ليرتاح الراحة الأبدية التى لا تعب فيها ولا نصب.

لنبدأ أولاً باشعاره فى المديح : قال من قصيدة يمدح بها الشيخ محمد عبده وهى فى غاية الاحكام وحسن الانسجام ، وحسبك ان تنظر كيف ذلل القوافى وجعلها سلسة الانقياد ، وكيف خلد ممدوحه فى هذه الابيات الخالدات ، كما خلد نفسه فى طليعة الشعراء الخالدين :

قالوا: صدقتَ ، فكان الصدق ما قالوا ما كل منتسب للقول قوّال
هذا قريضى وهذا قدر ممتدحى هل بعد هذين إحكام واجلال ؟
انى لأبصر فى أثناء بردته نوراً به تهتدى للحق ضلال
حللتُ داراً بها تُتلى مناقبه ببابها ازدحمت للناس آمال
رأيت فيه بساطاً جلّ ناسجُه عليه فاروقُ هذا الوقت يختال
بمشية بين صفّىْ حكمةٍ وتقىً يحبها الله لا تيهٌ ولا خال

بيت من الشعر يرنّ صداه فى الآذان فيجاوزها فيعم الدنيا صارخاً :

هذا قريضى وهذا قدر ممتدحى هل بعد هذين احكام واجلال ؟

فيجيبه لسان الدهر قائلاً :

لا ورب البيت ، لا أرى أكرم من هذا الاجلال . وأى اجلال أحكم من الذى يخلد فى صحيفة لا تنسى إلى آخر يوم من أيام الدنيا ؟ فليهنأ قائله وليهنأ من قيل فيه بالخلود الأبدى !

أما ترى الرجل فى الأبيات التالية من قصيدة يمدح بها ادوار السابع ملك الانجليز يوم تتويجه كيف حنكته نوائب الأيام فجعلته خبيراً بأحوال الانجليز وسياستهم الملك وتدبيرهم شؤونه ودهاءهم أكثر من غيره ممن اتصل بهم :

خبرتهم فرأيت القوم قد سهروا على مرافقهم والملك قد سهرا
تشاوروا فى أمور الملك من ملك الى وزير الى من يغرس الشجرا

وكان فارسهم فى الحرب صاعقة وذو السياسة منهم طائراً حذرا
بالبرّ صافنة داست سنابكها مناجم التبر حتى عافت المدرا
وفى البحار أساطيل اذا غضبت تر البراكين فيها تقذف الشررا
وهن فى السلم والايام باسمة عرائس يكتسين الدلّ والخفرا

لا ريب ان الرجل بعيد الفراسة ينظر لكل ما يحيط به نظر حصيف مدرب لا تتعداه فائتة ولا تفلت منه .

لنجُسْ خلال بؤسه وآلامه واتعابه ، ولننظر الى أى حد وصل به ذلك البؤس المرهق الذى لا يصمد له من الرجال الا الأفذاذ القلائل :

وددتُ لو طرحوا بى يوم جئتهم فى مسبح الحوت أو فى مسرح العطب
لعل (ما نىَ) لاقى ما أكابده فودّ تعجيلنا من عالم الشجب

هكذا فليكن قرض القريض مترجماً عما فى نفس صاحبه وما يساورها من خوالج . لازمه البؤسُ والنّصبُ من عهد الشباب الى أيام الشيخوخة الا قليلا منها ، فأرسل الشكوى الحارة المحرقة تقطع نياط القلوب وتفتت الأكباد وتناضل عن العبقرية وحقوقها عند الجمهور المستهين بها .

أو ما تراه كيف يأسف على ما جشّم نفسه من ركوب الأخطار والاتعاب ، لولا أحكام القدر القاسية التى جعلته يكتسب رزقه مضطراً بهذه الحالة المضنية ، وكيف عاد يعتذر لنفسه عما لاقته من اتعاب ، وان سبب اتعابها راجع الى والده الذى عمل على ايجاده فى هذه الدنيا ، وقد زاد على قول المعرى :

هذا جناه أبى علىّ وما جنيت على أحد

بأن أشرك نفسه مع والده فى الذنب إذ يقول :

رميت بها على هذا التباب وما أوردتها غير السراب
وما حملتها الا شقاء تقاضينى به يوم الحساب
جنيت عليك يا نفسى وقبلى عليك جنى أبى فدعى عتابى

الى أن قال من هذه الشكوى المؤثرة :

سَعيت وكم سعى قبلى أديب فآبَ بخيبة بعد اغتراب

وما أعذرت حتى كان نعلى دماً ووسادتى وجه التراب
وحتى صيَّرتنى الشمس عبداً صبيغاً بعد ما دبغت إهابى
وحتى قلم الاملاق ظفرى وحتى حطم المقدار نابى

ولعمر الحق لو حاول أمهر المصورين ان يصور ما بسطه حافظ من شكوى فى هذه الأبيات القلائل لما استطاع ، وكأنى أراه خارجاً مع الجنود فى بعض المهام الى بلد بعيد وقد تقطع نعله من كثرة المشى ، فظل يسعى حافياً وقد بلل دم قدميه وجه الثرى ، حتى اذا أدركهم الليل نام ملتحفاً الأرض كغيره من الجنود فاذا أشرقت الشمس فى صباح الغد عاودوا المسير وقد تضاعفت حرارة الشمس بما يصهر الجلود ويغلى الأدمغة . ولم يزل هذا ديدنه فى الأيام التى كان فيها ضابطاً بالسودان فى الجيش المصرى حتى أحالت لفحة الشمس وجهه المشرق بالبياض ونضرة الشباب إلى وجه قد علاه السواد كما يعلو الصدأ سيفاً لبث فى غمده أعواماً — فيا لها من أقدار ساخرة لا ترحم ، تلك التى جعلت شاعر مصر الاجتماعى العظيم يتذمر من الحياة ويشكو من أتعابها ! يا لها من أقدار تلاعبت به كتلاعب القط بالفار حتى قال :

فلو ساق القضاء الىَّ نفعاً لقام أخوه معترضاً شحيحاً

والآن فلننتقل من شقاء متواصل إلى أدمع من دماء سكبتها روحٌ ذاقت مرارة الألم وطعم العلقم .

قال من قصيدة يرثى بها المرحوم الشيخ محمد عبده :

سلامٌ على الأسلام بعد محمدٍ سلامٌ على ايامه النضراتِ
على الدين والدنيا ، على العلم والحجا على البرِّ والتقوى ، على الحسنات

فأنت بمجرد قراءتك لهذين البيتين فى مطلع القصيدة تعرف مبلغ الحزن العميق الذى نال الشاعر بفقد الأمام — حزن من أحسّ بعظم المصاب وفراغ المكان فى وقت كان الاسلام فى أشد الحاجة الى بقائه ليخرس ألسنة الأفاكين . والقصيدة بأكملها تبرهن على حزن ناظمها حزناً لا تشوبه شائبة رياء أو مجاملة .

بماذا تشعر حين تقرأ الأبيات الآتية ؟ ألا تشعر معى بعظم الخسارة الفادحة وقد صور ذلك الشاعر تصوير مفجوع ثاكل فأبدع التصوير حيث قال :

تباركتَ هذا الدين دين محمد أيترك فى الدنيا بغير حماة ؟

تباركت هذا عالم الشرق قد قضى ولانت قناة الدين للغمزات

الى أن قال :

فيا سنة مرت بأعواد نعشه لأنت علينا أشأم السنوات
حطمت لنا سيفاً وعطلت منبرا وأذويت روضاً ناضر الزهرات
وأطفأت نبراساً وأشعلت أنفساً على جمرات الحزن منطويات

الى أن قال مصوراً للحزن الذى استولى على الشرق خاصة والعالم الاسلامى عامه بفقد ذلك العالم الجليل :

بكى الشرق فارتجت له الأرض رجة وضاقت عيون الكون بالعبرات
ففى الهند محزون وفى الصين جازع وفى مصر باكٍ دائم الحسرات
وفى الشام مفجوع وفى الفرس نادب وفى تونس ما شئت من زفرات
بكى عالم الاسلام عالِم عصره سراج الدياجى هادم الشبهات

وهاك أبياتاً من قصيدة قالها فى حفلة تأبين المرحوم مصطفى باشا كامل يترجم بها عن الحزن الذى استولى على الناس عند وفاته وشعورهم نحو فقد زعيم الوطنية العظيم :

تسعون ألفاً حول نعشك خُشَّعٌ يمشون تحت لوائك السيّارِ
خطُّوا بأدمعهم على وجه الثرى للحزن أسطاراً على أسطارِ
آناً يوالون الضجيج كأنهم ركب الحجيج بكعبة الزوّارِ
وتخالهم آناً لفرط خشوعهم عند المصلّى ينصتون لقارى
غلب الخشوعُ عليهم فدموعهم تجرى بلا كلحٍ ولا استنثارِ

الى أن قال:

كم ذات خدر يوم طاف بك الردى هتكت عليك حرائر الافكارِ
سفرت تودع أمةً محمولةً فى النفس لا خبرا من الأخبارِ

لا ريب أن حافظاً أجاد تصوير الفاجعة على حقيقتها الواقعة تماماً . فهو بعد أن تكلم عن ذوات الخدور وخروجهن فى جنازة الفقيد ليشيعنه الى مقره الأخير وقد مزقن أستار الحجاب وجاهرن بالسفور أمام الجماهير المشيعة للفقيد عاد فشبه

الفقيد بأمة . لتقديره له كزعيم وطنى يطالب باسترداد حقوق بلاده . وقد صدق فى هذا التشبيه فكل من يسعى فى تحرير بلاده فهو لا شك قلبها النابض وفكرها الثاقب إذا فقدته فلا حياة لها بعده — بعد سكون قلبها من خفقانه وخمود فكرها بعد توقده — حتى يقوم فيها بعده داعٍ أو دعاة يسعون فى تحقيق أمانى البلاد فتُبعث من جديد بعد الموت مع الأمم الحية .

والآن لنضع القلم عند هذا الحد مكتفين بهذا النذر من حياة (الشاعر الاجتماعى) الأدبية فقط . أما حياته الخاصة فلنترك الكلام عنها للمتصلين به من أبناء مصر المجيدين ولنترك الدهر منشداً بلسانه :

خالدَ الآثارِ لا تخشَ البلى ليس يبلى من له ذكرٌ خلَدْ

الخرطوم ابا - السودان : بشرى السيد أمين

سيرة حافظ

الى الشاعر البائس شاعر الانسانية المعذبة الناشر الحق والنور ، الشبيه بتلك الشمعة التى تذوب لتضىء لغيرها ، المتعلق بأهداب الوطن الجريح ، ذلك الذى هدمت آماله وبدّدت أمانيه ، وبعثرت أحلامه ومات وهو يردد « مصر فوق الجميع »

الى روحه الطاهرة المرفرفة بجناحيها فى سماء آلهة الشعر بجانب عرائس الجنات فى عالم الخلود ، اليك يا حافظ أهدى رسالتى . . . . .

١ — مولده

فى فجر يوم من أيام سنة ١٨٧١ بدير وط وأسرته فى عيدها الأوحد تستقبل ابنها الأوحد الذى أبت الأقدار أن تبعث به من عالمها الرهيب المجهول إلى عالم الخلد بصوره وآياته الا فى ذلك الوقت الأخير وقد رفع أبوه طرفه الى السماء مردداً : « اللهم لك الثناء العاطر والشكر الجميل » !

وظل ذلك الوليد العزيز ينعم بقبلات أبويه صباح مساء حتى بلغ السنتين أو يزيد ، ثم نُكِبَ بموت والده الذى تركه بين أحضان أمه التى أضناها الأسى وحزّبها الألم وقضت من بعده وهى تتمنى لو أن تفتدى ما فى حياتها من زينة وبهجة وسعادة ومال ببقائها ولو بضع سنين حتى ترى حافظها يسير سير الرجال